شعراء العرب تحت المجهر

أبو نـــــــــــواس

يعد أبو نواس نقطة انطلاق أخري في تاريخ الشعر العربي، وقد اعتبره اللغويين وأئمة الشعر والبلاغة من أشهر وأهم المحدثين بعد بشار بن برد وذهبوا مذاهب كثيرة في حديثهم عن نبوغه الشعري وقدرته غير المسبوقة على الاستفادة من كل العلوم التي أمكنه الإطلاع عليها مما جعل قصائده حافلة بألفاظ هذه العلوم الفلسفية ، الفلكية ، التاريخية ، الدينية إلى آخره .

وأصبح شاعرا بالفطرة يعرف كيف يصوغ أحاسيس الغناء الصادقة و يعرف كيف يعبر عن مشاعره الرقيقة من خلال صور رائعة تنسجها لغة سهلة بسيطة يسهل جريانها على ألسنة الناس، لكن : من هو أبو نواس ؟ وكيف نشأ ؟

أبو نواس هو الحسن بن هانىء ابن عبد الأول ولد سنة ١٤٥ هـ أثناء خلافة أبي جعفر المنصور في (الأهواز) من بلاد فارس وكان أبوه يمنيا من موالي الحكم بن سعد العشيرة من قبيلة مذحج اليمنية كانت أمه فارسية وأسمها (جلبان)

كان أبوه يعمل في جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وكان مقره دمشق ثم هاجر للرباط بالأهواز في بلاد فارس، وهناك رأى جلبان على شاطىء أحد الأنهار فأعجبته فتزوجها وأنجب منها ابنه الحسن الذي عرف بعد ذلك بأبي نواس .

وعندما بلغ السادسة من عمره انتقل إلى البصرة وهناك كانت أول صدمات حياته، وهى وفاة والده، ألحقته أمه بعد ذلك بالكتاب لينهل من مواد الثقافة وليعب من مشاربها المتلونة واستمر على هذه الحال مدة حتى عجزت أمه عن تحمل أعباء الحياة فدفعته للعمل وهو في هذه السن الصغيرة فاشتغل عطارا يجرب أعواد البخور ولكن طموحه للعلم والأدب وشغفه بهما دفع به دفعا للتردد على حلقات الدرس في المساجد وفي أوقات فراغه، فأخذ علوم الحديث عن أعظم أئمته أمثال حماد بن زيد البصري المتوفى سنة ١٨٧ هـ كما قرأ القرآن على إمام البصرة وعالمها يعقوب بن اسحق الخضرمي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

أما النحو فقد قرأه من (الكتاب) لسيبويه كما تتلمذ على يد أبي عبيد معمر واستطاع أبو نواس بحق أن يصبح عالما فقيها عارفا للأحكام وللفتاوى بصيرا بالاختلاف صاحب حظ ومعرفة بطرق الحديث وكان أحفظ أشعار المخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين بالإضافة إلى إلمامه بالثقافات غير العربية مثل الثقافة الفارسية واليونانية والهندية .

اتجه أبو نواس إلى الفسطاط بمصر وهناك مدح والي الخراج (الخضيب بن عبد الحميد) بقصائد قصيرة مما دفع الوالي أن يغدق عليه العطايا ومن مدائحه للخصيب قوله :

أنت الخصيـــــــب وهذه مصـــــر ... فتدفقا فكلاكما بحـــــــــــــر

النيل ينعش ماؤه مصـــــــــــرا ... ونداك ينعش أهله الغمـــــــــر

ولم يمكث أبو نواس كثيرا في مصر بسبب حنينه الشديد لبغداد وأيام بغداد وما إن عاد حتى توفى الرشيد وتولى الأمين أمر المسلمين واتخذ أبو نواس نديما له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ومع ذلك حبسه الأمين أيضا وبعد العفو عنه كانت قد تقدمت به السن وتسلل المرض إلى جسده وأحس أن الدنيا قد ولت له ظهرها فتاب إلى الله ورجع وكتب أروع ما كتب من قصائد الزهد ثم توفي سنه ١٩٩ هـ .

خصائص أبي نواس الشعرية

أبو نواس ظاهرة فنية مفعمة بالثراء والعمق وصورة لعصره المضطرب الصاخب الموزع بين تيارات مذهبية مختلفة الأصول والاتجاهات فهناك من تمسك بالعروبة ويبلغ من تطرفه أن يكون قبيلة وقد يعتدل فيصبح انتماءه إلى العروبة والإسلام انتماءاً إلى أمة قدر لها أن تحمل لواء الحضارة زمنا طويلاً وفي الجانب المعاكس هناك تيارات الشعوبية التي تدعو إلى التنصل من كل ما يمت إلى العرب بصلة ولقد اجتمعت هذه التناقضات جميعها في شعر أبي نواس .

فمرة هادىء النفس حزينا فيهمس :

يارب إن عظمت ذنوبـــــــــي كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظـــــــــم

ومرة متمردا على تقاليد القصيدة العربية فيقول ساخرا :

قل لمن يبكـــــى على رسم درس   واقفا ما ضر لو كان جـــــــلس

وإذا كان أبو نواس هو رائد التجديد في شعر المائة الثانية من الهجرة، فإن أبو نواس هو المجدد الأكبر، لما حفل به شعره من تحد للقيم الفنية المتوارثة والمستقرة، وتمثل التجديد في الفن الشعري عند أبي نواس في :

أ-بناء القصيدة :

١-الثورة على المقدمة الطللية :

أعلن أبو نواس ثورته على المقدمة الطللية في بيته المشهور :

صفه الطلول بلاغـــــــة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكـــــــــــرم

غير أن هذه الدعوى لتبني المقدمة الخمرية بدلا من وصف الطلول الذي هو بلاغة البدوي الجلف ليست مجرد نوع من التمرد من أجل التمرد بل هى ثورة تهدف إلى التخلص من رمز الحياة البدوية القديمة .

ذلك أن الطلل كان يمثل للشاعر البدوي رمزا للوطن، هذا الوطن المتنقل المتحول، فهو يحمله معه ويحن إليه، حين ينتقل إلى مكان آخر كما تقتضي حياة البداوة والترحال، وحين يعود إلى مرابع صباه يعاوده الحنين فيشخص الطلل ويخلع عليه من تلك الحياة التي كانت له وفيه، غير أ، هذا الطلل لم يعد أكثر من رسم دارس ربما عاتب الشاعر نفسه لوقوفه عليه، كما قال إمرؤ القيس:

فهل عند رســــــــــم دارس من معمول

أما بالنسبة لشاعر يعيش في مدينة البصرة يرتع في قصور لخلفاء فماله وللأطلال يبكي عليها؟ وماله ولهند ؟أليس الأجدى له والأصدق أن يقول كما قال أبو نواس :-

وتبك ليلى ولا تطــرب إلــــــــى واشرب على الورد من حمراء كالورد

فالخمر هي تجربة أبي نواس التي يريد من خلالها أن يطرح رؤيته للحياة فقد كان عاشقا للذة يرى الحياة قصيرة ولابد إزاء حياة عابرة من الاستمتاع بكل لحظاتها وعدم تضييعها فيما يئس من إدراكه.

حتى الأطلال التي تمرد عليها ترد في شعره وقد تغيرت كما تغيرت الحياة، فلم تعد طامسة كئيبة بل أصبحت مشرقة متجددة رغم مرور الزمن في قوله :

لمــن دمن تزداد حسن رســــــــوم على طول مــــــا أقوت وطيب نسيم

تجافى البلى عنهن حتـــــــــى كأنما لبسن – علـــى الأقواء – ثوب نعيم

إنها ليست أطلال إمرؤ القيس ولا الفرزدق أو جرير بل أطلال أبي نواس، ابن مدينة البصرة بما تعج به من صنوف المتعة وألوان البذخ ، ولم تقتصر الخمر على مطالع القصائد عند أبي نواس، بل كانت القصيدة كلها خمرية في أغلب شعره.

٢- بين وحدة البيت ووحدة القصيدة:

رأى النقاد القدماء وحدة البيت نموذجا جماليا أعلى ينبغي على الشاعر أن يحتذيه، وإلا كانت قصائده معيبة بالتضمين، وسماه قدامة بن جعفر البتر، وهو أن يطول المعنى عما يحتمله عروض البيت فيقطعه بالقافية ثم يكمله في البيت الثاني ومثل ذلك فيقول عروة بن الورد :

فلو كاليوم كان علـــــى أمري ومن لك بالتدبر فـــــي الأمور

إذاً لملكت عصمــــــــه أم دهب على ما كان حساك الصـــــدور

ومن قصائد أبي نواس التي أعجب النقاد بطريقته القصصية فيها، ومن هؤلاء ابن مالك وأطلق على هذا الأسلوب اسم (المراجعة) وجعلها لوناً من المحسنات البديعية، ومثل لها بقصيدة لأبي نواس ومطلعها :

قال لي يوماً سليمـــــــــــــاً نُ وبعض القول أشنـــــــع
قال صفني وعليـــــــــــــاً أينا أتقــــــــــى وأروع

ب - التجديد في اللغة :

سبقت الإشارة إلى أن أبا نواس قد تميز بمعرفته الواسعة باللغة والشعر والعلوم الأخرى التي أتيح له الاتصال بها في عصره فمنذ نعومة أظفاره راح أبو نواس يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه، ويستمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم، ويلتقط من أبي زيد غرائب اللغة، ومن خلف الأحمر نوادر الشعر، وخرج إلى بادية بني أسد يتزود من ينابيع اللغة، وأخذ يفد على المربد للقاء الأعراب الفصحاء، ولم يكتف بالشعر واللغة فطلب الفقه والحديث والتفسير، وطلب أيضاً علم الكلام .

هذا التنوع المعرفي قد أتاح لأبي نواس لغة شعرية جديدة، فقد انصهرت كلها في بوتقة واحدة، فخرجت لغته عن التصور القديم للغة الشعر وكونها صافية خالية من كل ما يستخدم في العلوم الأخرى من الألفاظ، لأنه في رأى بن سنان الخفاجي وضع للألفاظ والصحيح عنده واللائق بالشر ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب – ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تخص أهل العلوم، لأن الإنسان إذا خاض في علمه وتكلم في صناعته وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم والكلام وأصحاب تلك الصناعة.

وهذه الظاهرة التي التفت إليها النقاد في شعر أبي نواس نتجت عن اتصاله بالمصادر المتنوعة لثقافة عصره فحفل شعره بها .

يقول أبو نواس متغزلا :

وذات خـــد مورد فتانة المتـــجرد
تأمل الناس فيهـــا محاسنا ليس ينفد
الحسن في كل جزء منهما معاد مردد

فبعضه في انتــهاء وبعضه يتولـــده

ورغم أنها مقطوعة غزلية فإنها احتوت على بعض ألفاظ المناطق والفلاسفة كالجزء والكل والتولد، وهو الفعل الناشىء عن فعل آخر دون قصدٍ.
ويقول متأثرا بالمناقشات والمناظرات التي كانت تدور بين المعتزلة وغيرهم حول قضايا فلسفية ودينية كثيرة، احتلت فيها قضية الجبر والاختيار موقعاً مهما، فيقول محتجاً على الفريقين:

يا ناظراً في الدين ما الأمـــر لا قدر صحَ ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبر

أدت معرفة أبي نواس باللغة الفارسية إلى كثرة استعماله الألفاظ الفارسية في شعره، خاصة حين يوجه الكلام إلى بعض غلمان المجوس ممن يراهم في الحانات التي يرتادها، فيخاطبهم بأسماء آلهتهم وأعيادهم الدينية وغير ذلك كما في قوله:

والمهــــــــــــــرجان الدرار لوقتـــــــــــــه الكرار
والنكروز الكبـــــــــــــــار وحبشن جـــــــــاهنبار
وأبســــــــــــــال الوهار وخره إيران شـــــــــــار

وكلها لأسماء أعياد فارسية.
وقد وقف النقاد القدماء المحدثون عن ظاهرة اللحن في شعر أبي نواس ومعاصريه، فخطأوه في مواضع كثيرة جاءت مخالفة للقياس اللغوي الفصيح فمن ذلك قوله:

رشـــــأ تواصين القيـــان بـــــــه حتـــــــى عقــدن بإذنه شنفــا

حتى أخذ عليه المرزباني قوله (تواصين) فألحق نون النسوة بالفعل رغم وجود فاعل ظاهر (القيان)، كما عاب عليه استخدام (شنف) جمعاً(لشنف) والصواب جمعها على (أشناف وشنوف).

غير أن في كلام المرزباني تعسفاً،لأن قوله (تواصين القيان به) وارد على قياس لغة فصيحة وتسمى لغة (أكلوني البراغيث)، ومثله في القرآ، الكريم: (يطوفون عليكم ملائكة باليل وملائكته بالنهار) كما أن عدوله عن شنوف وأشناف له مبرر من الضرورة الشعرية.

كان لدى أبو نواس حس شعبي واضح في أغلب شعره، حيث نجده يميل إلى السهولة في اللغة وبساطة التركيب، وقد لاحظ هذا بن شرف القيرواني، ورد على ما في شعره من بساطة التركيب، وعفوية إلى رغبة أبي نواس في الترويج لبضاعته لدى العامة، مما جعلهم يكلفونه بشعره ويستظرفونه .

تجاوز أبو نواس في تجديده اللغوي ما قدمه بشار بكثير، فقد كان تجديد بشار جزئياً، وفي أقل النماذج من شعره، بعكس أبي نواس الذي غلب التجديد على لغته الشعريةعلى نحو ما أشرنا فس السطور الماضية .

أبو علاء المعرى

تعتبر معرفة الشاعر باللغة المنطلق الأول الذي يبدأ منه صوغ تجربته الفنية وبقدر سيطرته على اللغة وإلمامه بها تتحدد مقدرته الإبداعية وقد كان أبو العلاء المعرى نموذجا للشاعر صاحب التجربة الفنية المنفردة والثقافة اللغوية غير المسبوقة فى تاريخ الشعر العربى وقد انعكست هذه الثقافة فى شعره وأدبه معا وقد وضعته ثقافته اللغوية هذه فى مقدمة صفوف الشعراء فى القرن الخامس الهجرى بل اعتبره بعض النقاد أهم شاعر عرفته العربية على الإطلاق .

ولعل هذه الثقافة اللغوية الواسعة هى التى مكنته من الجرأة على خوض مجالات متعددة فى شعره اختلف حولها النقاد فى كل شيء واتفقوا على أمر واحد اجمعوا عليه هو عمق ثقافته اللغوية وعمق معرفته باللغة .

يقول التبريزى:(لا أعرف كلمة فى العربية لم يعرفها أبو العلاء).

- قال عنه ابن خلكان (كان المعرى متضلعاً بفنون الأدب)
- قال عنة الصفدى :(كان إطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً)

قد عده بن القارح أعلم من سيبويه فى النحو وليس من قبيل المبالغة فى شيء القول بأن المعرى كان يتصور الكون كلاً لغويا ،هذا الكل اللغوي إنما هو مرآة انعكست فيها معارفه المختلفة التى اتسمت بتعددها فكان لها حضور طاغ فى شعره، وسيطرة كاملة على معجمه إلى حد ميز شعره بخصائص لم يسبقه إليها أحد .

مولده ونشأته

هو أبو العلاء أحمدبن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخى لقب برهين المحبسين هما منزلة الذى اعتزل فيه الناس وفقد بصرة الذى كفاه شرهم بل اعتبر نفسه فى بعض أبياته رهين محابس كثيرة حين قال :

أراني فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى
وكون النفس فى الجسد الخبيث

ولد أبو العلاء فى شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هجرية بمعرة النعمان إحدى قرى الشام الواقعة بين حمص وحلب .

نشأ في أسرة من أعرق وأشهر بيوت حلب فأمه من آل سبيكة وهم من المعروفين برفعة قدرهم فى هذا الوقت وأبوه من بيت شرف وحسب قال عنهم بن العديم مؤرخ حلب إن أكثر قضاة البصرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان.

وذكر ياقوت فى معجم الأدباء ممن تولى القضاء فى المعرة جد شاعرنا وعمه وأباه وأخاه الأكبر أبا المجد محمد بن عبد الله المعرى على هذا الترتيب كما ذكر أخاه الأخر وسبعة أبناء إخوة الشاعر وأحفادهم كلهم شعراء .

لم يكن المعرى يبلغ الرابعة حتى أصيب بمرض الجدرى الذى افقده نور عينيه والمرجح أن شاعرنا لم يفقد بصره مره واحدة فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الجدرى ذهب بيُسر عينيه وغشى يمناه ببياض وهو ما رواه بن العريم عن بن منقذ انه رأى أبا العلاء وهو صبى ووصفه بأنه دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدرى كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا ورغم فداحة مصيبته لم يتخلى أبوه عنه وأصبح معلمة الأول وذهب به ليتتلمذ على أئمة اللغة وشيوخها إلى الحد الذى جعله يتحصن بالعلم والمعرفة منذ صباه ونبغ فى الشعر ولم يتجاوز بعد الحادية عشر من عمره، عرف بنفاذ البصيرة وقوة الحافظة إلى الحد الذى جعل معاصروه ينسجون حولها الأخبار والحكايات التى تكاد تلحق بالأساطير ومن هذه الحكايات أن الكتاب كان يقرأ له مرة واحدة فيحفظه وإذا حفظه لا ينساه، وتروى حكاية عن عالم يمنى وجد كتابا قيما أعجب به كثيرا غير أنه قد ضاعت بعض أجزائه الأولى التى كانت تحمل عنوان الكتاب واسم المؤلف، فدار به في الآفاق يبحث عن ثبت تكون عنده مخطوطة أخرى للكتاب، فيكمل ما ينقص من نسخته ،حتى وصل إلى أبى العلاء المعرى ،فطلب منه أن يقرأ عليه بعض الصفحات وما لبث أن هتف به، هذا ديوان الأدب للفرابى وأنا أحفظه وأسمعه بعض الصفحات مما بين يديه ثم قال له: سأملى عليك ما ضاع منك.

ومهما كان أمر هذه الحكايات فأنها تعبر عن تصور صادق لما كانت عليه عبقرية الشاعر.

فقد أبوه فى الرابعة عشرة من عمره وبذلك يفقد معلمه الأول لكنه يصر على استكمال مسيرة حياته ويبدأ رحلاته طلبا للاستزادة من العلم فرحل إلى بعض الأمصار وكانت أولى رحلاته إلى حلب ثم طرابلس الشام ثم اللاذقية ثم بغداد عاصمة الخلافة والعلم آنذاك، وتعتبر رحلته إلى بغداد نقطة تحول خطيرة فى حياته فقد سافر إليها وهو فى الخامسة والثلاثين من عمرة سنة ٣٩٨

وظل بها حتى سنة ٤٠٠ هجرية لكنه لم يحقق ما كان يطمح إليه من هذه الرحلة فعاد منها خائب الأمل سيئ الظن بالناس موقناً بأن الفضل والأدب وحدهما لا يكفيان للوصول لذروة المجد والثروة وأنه لابد إلى جانبهما من سلم دنيوى ويرتقى علية إلى الآفاق الدنيوية العليا وبينما هو فى طريق العودة إلى معرة الزعمان وفاه نبأ موت أمة وكانت لها منزلة كبيرة فى نفسه فوقع النبأ فى نفسه وقوع الصاعقة ورثاها بقصيدته التى مطلعها :

سمعت نعيها صمـــــام وإن قال العواذل لاهمام

بعد عودته أحس بهوان الدنيا عليه عليه وبعدم جدواها وظل معتزلا الناس بقية زاهدا فى دنياهم راهباً ًمنقطعاً لعلمه وشعره وتأملاته في الحياة وتفكيره فى مصير الإنسان فيها، فامتنع عن الزواج وحرم ذبح الحيوان والطير وأكل لحومها، وعاش نباتيا، واختار خشن الثياب والطعام، وزهد فى ملذات الدنيا ومتعها.

خصائص شعر المعرى

يمكننا أن نقسم شعر المعرى إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى ويعبر عنها ديوانه الذى جمعه بنفسه باسم (ديوان سقط الزند) وجاء ديوانه هذا تقليديا إلى حد كبير حيث احتوى على الأغراض الشعرية المألوفة فى التراث العربى كالمدح والوصف والغزل والرثاء .. الخ وبدا فيه تأثره الواضح بالمتنبي وكلفه بالصنعة اللفظية التى سيطرت على معظم شعراء عصره وأهم ما يمكن ملاحظته فى هذا الديوان انه لم يكن قد نضج فنيا ولم تكتمل معارفه اللغوية إلى الحد الذى سنراه بعد ذلك فى المرحلة الثانية من شعره إلا انه بفضل قراءاته الكثيرة فى صباه استطاع أن يكون لنفسه رصيدا لغويا ضخما، اعتمد عليه فى تكوين نمط لغوى يقوم على اقتدار غير مسبوق فى التعامل مع الألفاظ وتشقيق بعضها بعض ووضعها فى أطر هندسية تقوم على تنظيم صارم للألفاظ لخلق معانٍ متنوعة وقد يغاير المعرى بين معنى وأخر بمجرد تغيير حركة واحدة فى الكلمة لتؤدى دلالة جديدة، وهذا الولع بالمجانسة بين الكلمات ما كان يتأتى لأبى العلاء ما لم يكن عارفاً بالمباني الصرفية المختلفة، فليس الأمر مجرد مشاكله صوتية، فدائما يكون الجناس عند أبى العلاء مشاكله فى البناء الصوتي والصرفى معا والأمثلة على هذا كثيرة يقول أبو العلاء :

كبرت فأصبحت للراشدين

كبُرت يعد للهدى دليلا

كبرت فمازال هنا الزمان

كبَرت يجد قليلا قليلا

فهو هنا يتلاعب بكلمة (كبرت)، فترد مرة فعلا، ومرة بمعنى (الدليل)، وثالثة بمعنى (الفأس). وواضح مدى التكلف الذى لا يفيد الدلالة، حيث لم تضيف كلمتا (بُرت – برت) أي جديد للمعنى وحين يتحرر أبو العلاء من القيود الشكلية الصارمة ويسعى إلى التعبير بعفوية عن تجربة صادقة ،فإنه يبدع نصوصا شعرية جميلة تتواشج فيها العاطفة والدلالة، وتأتى الكلمات طيعة سلسلة صوتيا وصرفيا والتراكيب سهلة قريبة المتناول والدلالات منسجمة ومترابطة، كما فى مرثيته الرائعة لأبى حمزة ومنها:

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادي نوح باك ولاترنم شادى

وشبيه صوت لنعى إذا قيس بصوت البشير فى كل ناد

ابكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

صاح هذى قبورنا تملأ للرح بَ فأين القبور فى عهد عاد

خفف الوطءَ ما أظن أديم آل أرض إلا من هذه الأجساد

إن التماثل يشكل روح هذه القصيدة وجوهر التجربة الشعرية فيها وليس مجرد عنصر شكلى يتجسد فى رنين الأصوات أو تناظر التراكيب أو نحو ذلك من النظم الشكلية التى قادته فى النماذج المذكورة سابقا إلى الإنصراف عن المدلولات إلى الدوال وأدت لافتقار النصوص فى الترابط والانسجام .

إن التماثل هنا جوهرى: تماثل بين الحياة والموت والبكاء والغناء والحزن والسرور إلى آخر هذه الثنائيات المتضادة فى عمق التجربة الإنسانية لكنها – فى القصيدة- تفارق ما استقر لها من دلالات، إن صدمة الموت تزلزل الثوابت فتنهار أمامها، وحينئذ تتساوى الأشياء، حين يعود الإنسان ترابا ويلحق بعنصره القديم فيصبح جزءاً من أديم الأرض ليعيد تشكيلها بعد ما كان قد تشكل منها وفى نهاية المطاف يؤول الوجود إلى عدم .

المرحلة الثانية وتمثل شعر اللزوميات

وتعكس هذه المرحلة صناعة إيقاعية بالغة الدقة شديدة الولع بالشكل حيث لم يكتف أبو العلاء بالقافية المعروفة ممثلة فى تماثل حرف الروى وحركته على طول القصيدة، بل زاد هذا فى (اللزوميات) أن ألزم نفسه مالا يجب أن يلتزم به، وهو اطراد حرف آخر غير حرف الروى، بل

حرفين وثلاثة وبالغ فى هذه القيود الشكلية المتعلقة بالقافية حتى (أخذ نفسه باستيفاء حروف المعجم كافة وما يلحقها من الحركات والسكون، فلكل حرف أربعة فصول، إلا الألف فإنها لا تكون إلا ساكنة، فإشتمل الكتاب (أى اللزوميات) على ثلاثة عشر فصلا ومائة)

وبذلك استطاع أبو العلاء أن يحقق فى اللزوميات نوعا من الخصوصية لم تتوفر فى شاعر قبله، ولولا تمكنه من اللغة وقدرته على التصرف وتطويعها لفنه كما استطاع أن ينظم على حروف المعجم كلها باختلاف حركاتها .

كما تدل هذه القيود الصوتية فى شعر أبى العلاء على تفرده بنسق صوتى فريد ورغبته عن تحقيق هذه الخاصة الإيقاعية التى لم يذكر التاريخ شاهداً لها عند شاعر أخر سوى قصيدة واحدة لكثير عزة مطلعها:

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا فلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

غير أن كثير عزة لم يلتزم هذا فى سائر شعره، ولم يتبعه فى هذا التقليد الصعب شاعر أخر، حتى جاء أبو العلاء فالتزم هذه الطريقة فى ديوان ضخم بأكمله، وبلور هذا التقليد الأدبي فى اللزوميات بصورة واعية مدروسة ومخططة بعناية، فأبو العلاء يستعرض فى مقدمته للزوميات منهجه هذا، فيعلن أنه من صنعه، وأن الشعراء الذين سبقوه استوعبوها فقلما يستوعبون مجيء كل حرف على الصور الأربع الممكنة (الضم – الفتح- الكسر – السكون) فيقول وقد تكلفت فى هذا التأليف ثلاث كلف :

الأولى - أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها

الثانية - أنه يجئ رؤيه بالحركات الثلاث، وبالسكون بعد ذلك.

الثالثة - أنه لزم مع كل روىً فيه شيء لا يلزم: من ياء، أو تاء، أو غير ذلك من الحروف.

وهذة الظاهرة أفادت شعر أبى العلاء فى بعض الأحيان، حين يكون الروى والحروف المحيطة به سهلة على الأذن، حينئذ يأتى الإيقاع الموسيقى سلسلا رقيقا على السمع لا يصدم الأذن ولا ينبو عن الذوق كما فى كثير من الهمزيات ،ومن ذلك قوله :

توحد فإن ربك واحد ولاترغبن فى عشرة الرؤساء

يقل الاذى والعيب فى ساحة الفتى وإن هو أكدى – قلة الجلساء

فأف لعصريهم :نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمة النفساء

يقول لها من قبل نطق لسانه تفيدين بى أن تنكبى ونسائي

ويقول فى لزومية أخرى :

يا ملوك البلاد فزتم بنسيء آل عمر، والجور شأنكم فى النساء
مالكم لاترون طرق المعالى قد يزو الهيجاء زير نساء
يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ مة عند المسير والإساء

وقد جاءت قوافى الأبيات فى المقطوعتين عذبة وسهلة على الأذن لان الروى والحروف الأخرى التى إلتزمها معه يسهل أن يتشكل منها كثير من المترادفات جمالا يعوق الشاعر عند المضى فى قصيدته، ولا يعوق السامع عند الاستمتاع بمعانيها وجرسها .

لكن هذه الظاهرة (لزوم ما لا يلزم) قد اضطرته أحيانا إلى اجتلاب كلمات صعبة وحشية، خاصة عندما يكون الروى أو الحروف المجاورة له من الحروف النادرة كالثاء والخاء والظاء ونحوها حينئذ يلجأ ابو العلاء غاية فى الغرابة كما فى قصيدته التى يقول فيها :

لأمواه الشبيبة كيف غضنه وروضات الصبا فى اليبس إضن
وآمال النفوس معللات ولكن الحوادث يعترضنه
فلا الأيام تغرض من أذاه ولا المهجات عيشن غرضنه
وأسباب المنى وأسباب شعر كففن بعلم ربك او قبضته

وواضح من النماذج السابقة مدى تأنى أبى العلاء فى صياغة تجاربه الشعرية وغلبه الطابع الهندسى على شعره بسبب لزومه ما لا يلزم فى القافية ويمكننا القول أن أبا العلاء كان واعيا بفنه أو على حد تعبير استأذنا الدكتور يوسف خليف (كأنه يريد أن يقول إن الشعر ليس فنا عفويا يعتمد على الطبع والفطرة، ولكنه عمل صناعى يعتمد على الفكر والعقل)وبهذه السمة العقلية تخلص شعر أبي العلاء من سمة مهمة ميزت الشعر العربى بوجه عام وهى كونه انشاءا شفاهيا رتجلا فى عموم أما عند أبى العلاء وبسبب هذه العقلانية والهندسية فقد خفتت سمة الارتجال الشفاهى وحل محلها روح التنظيم والإيداع الكتابى .

البُحتُـــري

تُصبح المشكلة الرئيسية لأي شاعر، الغرق في متاهة الاختيار، فالكلمات لا تقع تحت حصر، فأيها يختار، وأيها يدع، وأيها تتناسب مع تجربته وتُعبر عنها بصدق، والحس اللغوي والفهم الجيد لأسرار الكلمات وما تفجره من معاني هو الحد الفاصل بين شاعر وشاعر.

والبُحتري من الشعراء المطبوعين، الذين لم تشغلهم الصنعة الفنية والزخارف اللفظية بما فيها من تعقيدات عن إدراك روح المعنى والوعي بعمق التجربة، لذلك حين تتصارع الكلمات في عقل شاعر نجده حريصاً على أن يختار منها القريب السهل، فجاءت ألفاظه عذبة وبعيدة عن الإغراب والتعقيد والوحشية، تسيرُ في انسياب يدفعنا إلى الغرق في بحور الشاعرية، ويصرفنا دون قصد عن الصور المكررة والتعبيرات الشائعة المتناثرة في أرجاء ديوانه، إلى موسيقى الكلمات والعبارات المتتابعة في توازن وانتظام رائعين، يخلقان إيقاعاً ترتاح له الأذن ويقربان المعاني إلى الذهن مهما كانت بعيدة ويعبران عن إحساس صادق بالشعر والموسيقى في آن واحد لندرك بسرعة أننا أمام شاعر فهم الشعر بوصفه طبيعة رمزية تعتمد على اللمحة السريعة الخاطفة التي تُسجل تلقائياً لحظة شعورية بعينها تومض في نفس شاعرنا دون إخضاعها للتفكير العقلي.

ولا شك في أن هذه الخصوصية الفنية قد وضعته في مكانة مرموقة بين شعراء عصره وحظي باحترامهم وتقديرهم، ووصف بعضهم شعره بأنه سلاسل من ذهب، وقال الكثيرون (أنه لم يأتِ بعد أبي نواس من هو أشعر من البحتري) واعتبره المتنبي (أوحد الشعراء المحدثين في حسن بيانه)، ووضعه أبو تمام على إمارة الشعر من بعده ، و قد سُؤل المعرى ذات يوم أيُ الثلاثة أشعر :(أبو تمام أم البحتري أم المتنبي) فأجاب :(المتنبي وأبو تمام حكيمان ،أما البحتري فهوالشاعر)

لم يكن البحتري مثل مُعاصريه من المولعين بالثقافات الأجنبية الموجودة آنئذ فلم يتأثر بفلسفة اليونان و منطقهم ، كما لم يطلع على علوم الهند و انحصرت ثقافته في الثقافة العربية القديمة ليُصبح بذلك على رأس مدرسة المحافظين في الشعر العباسي التي أقامت منهجها على ضرورة التزام الشعراء بالتقاليد و الأصول الفنية الموروثة و قياس براعة الشعراء بمدى تمسكهم بمثل هذه المقاييس . و بالطبع جاء هذا المنهج مناقضا لما ذهبت إليه مدرسة المجددين التي رأت ضرورة قياس الشعر بمعايير الثقافة اليونانية ، و احتدم الصراع بين التيارين و رأى البحتري أن جماليات الشعر لا يمكن إخضاعها لسلطان العقل و أن أعذب الشعر أكذبه و أن فحول الشعراء و

أنمتهم – الذين أخذنا عنهم – لم يكونوا على علم بالمنطق كما أن طبيعة الشعر لا تحتمل الأدلة و البراهين المنطقية التي ربما تفقده روحه و تحوله من شعر إلى نثر و قد صرح بمذهبه الفني هذا في هذه الأبيات :

كلّفتمونا حـدود منطقــكم

والشعر يغني عن صدقه كذبُـه

و لم يكن ذو الجروح يلــ

ــهجُ بالمنطق ما نوعُهُ وما سببهُ

و الشعر لمح تكفى إشارتهُ

و ليس بالهذر طوُلت خُطبـته

مولده ونشأته

البحترى شاعر عربى خالص هو : الوليد بن عبد الله بن يحيى بن عبيد الطائى لقب بالبحترى نسبه إلى بحتر أحد أجداده وكنيته أبو الحسن حينا وأبو الحسن حيناً أخر وقد لازمته الكنية الأخيرة طيلة حياته وبعد مماته .

ولد البحترى فى قرية منبج فى شمال الشام بين حلب والفرات سنه ٢٠٦ هجرية وعاش طفولته وصباه فيها وقد ارتبط اسم مدينته هذه باسم البحترى الذى تعلق بها اشد التعلق وكان يشعر دائما بالحنين إليها :

لا أنسين زمنا لديك مهذبا

وظلال عيش كان عندك سجج

فى نعمه أوطنتها وأقمت فى

أفيائها فلكأننى فى منبج

ولا يوقف شوقه على منبج وحدها بل يجعله للشام كلها ويطلق العنان لشعرهمعبرا عن تعلق قلبه وروحه بها متفننا فى وصف محاسنها متغنيا بجمالها .

أجوب فى آفاقها وأسيرها   عنيت بشرق الأرض قدما وغربها

ليراح نغاديها وكأسى نديرها   فلم أزميل الشام دار إقامة

ولهو نفوس دائم وسرورها   مصحة أبدان ونزهه أعين

ففى كل دار روضه وغديرها   مقدسة جاد الربيع بلادها

وكانت لنشأه الشاعر فى البادية بمنبج بين قبائل طئ أثر مباشر على فصاحته كما كانت لبعض الشخصيات تأثير كبير على حياته كلها ومن هذه الشخصيات من هم من الشعراء مثل أبو تمام أو العلماء مثل أبو العباسى المبرد أو الخلفاء مثل المتوكل الذى مدحه بحوذته ٣٠ قصيدة .

والحقيقة أن أبا تمام كان أكثر الشخصيات أهمية فى حياه شاعرنا إذ كان فى هذه الفترة من نجوم الشعراء وأمرائهم الذين يسعى إليهم الشباب ليتزودوا من علمهم ويتلقوا عنهم فنون الشعر والبحتري واحد من هؤلاء وكان أول لقاء بينهما فى أحد المجالس الشعرية التى كانت تعقد فى حمص وبين يدى أبى تمام أنشد البحتري القصيدة التى مطلعها

أم خان عهدا أم أطاع شقيقا أأفاق صب من هوى فأفيفا

وأحس أبو تمام بموهبة الوليد واستدعاه فى نهاية المجلس ليعبر له عن إعجابه بقوله أنت أشعر من أنشدني وسأله عن حالة فشكا إليه فقرة فأشفق علية أبو تمام منذ هذه اللحظة وأدرك حجم المسئولية التى يجب أن يتحملها من أجل رعاية الشاعر الجديد وأخذ على عاتقة توفير كل السبل التى تبعث موهبته للوجود فزوده بالعلم والمعرفة وأعطاه النصائح والوصايا وساعده على تجاوز عصره الفقر ولحاجة وقرر أن يقدمه للكبراء والأمراء والأعيان ليمدحهم.

وكتب إلى أهل معرة النعمان يرغبهم فى شعر البحترى وفى الوقت نفسه طلب من البحترى الذهاب إليهم لمدحهم وما أن تأكد القوم من شاعريته ونبوغه ونباهته حتى منحوه أربعه آلاف درهم كل سنة وكانت هذه الدراهم أول ما أصابه بالشعر ثم قدمه بعد ذلك إلى ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينيا ثم إلى سامراء التى كانت نقطه تحول خطيرة فى حياة الشاعر فهناك تحققت أمنياته وفتحت له أبواب القصور وأصبح أحداً من أهم شعراء البلاط وبدأ سلسلة مدائحه فى من عاصرهم من الخلفاء مثل ألوان والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ويموت الأستاذ ويظل البحترى رغم ذلك حافظا للود محترما علمه الأول مقدما له على نفسه .

الخصائص الفنية لشعر

البحترى

سبقت الإشارة إلى أن البحترى استمد شاعريته من وعيه وإدراكه وحميمية اتصاله بالثقافة العربية القديمة وقد تركت هذه الثقافة تأثيراتها المباشرة على شعره ويمكن أن نقف عند أهم خاصية وضحت من خلال هذا التأثر وهى التزام الشاعر بعمود الشعر ويعنى (التمسك بالتقاليد والأصول الفنية) ٠

وحول عمود الشعر ثارت عند قدامى شعراء العرب كل مسائل الخصومة بين القدماء والمحدثين إذ إن هؤلاء المحدثين قد انحرفوا قليلاً فى صناعتهم عما يقتضيه عمود الشعر من أصول ، أما المحافظون وعلى رأسهم البحترى فكانوا حريصين كل الحرص على أساليب العرب ومحافظين على مذاهبهم الفنية المتوارثة ٠

وقد حرص البحترى على التزام عمود الشعر فى عدة أمور :

فعلى مستوى اللفظ حرص البحترى على الجزالة ويقصد بالجزالة (ألا يكون اللفظ غريباً ولا سوقيا مبتذلاً) أو بتعبير أحد النقاد (ما تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله العامة فى محاوراتها)

وقد كان البحترى شديد العناية بالألفاظ حريصاً على اختيارها وانتقائها ليلائم بينها وبين الموضوع الذى ينظم فيه لذلك كان يختار السهل والبعيد عن التعقيد والإغراب وقد عبر عن منهجه هذا فى قوله :

وبديع كأنه الزهر الفاحك	فى رونق الربيع الجـــديد
ومعـان لو فضلتها القوافى	هجنت شعر جرول ولبتيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا	وتجنبن ظلـمة التعـقيـد
وركبته اللفظ القريب فأدرك	أن به غاية المـرام البعيـد

وقد التزم البحترى هذا المنهج فى بنائه لقصائده ، وظل طيلة حياته يقدم شعرا عذب المأخذ قريبا من الوجدان لا يتكلف فيه ما يفسد روعته فابتعد عن وحش الألفاظ وغريبها لذلك جاءت سلسلة فى معظمها مناسبة سهلة على الأذن ومن أجمل ما قال :

دنوت تواضعا وعلوت قدرا ـ فشأنك انحدار وارتفاع

كذاك الشمس تبتعد أن تساقى ـ ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال أيضا :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا *** من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز فى غلس الدجى *** أوائل ورد كن بالأمس نوما

يفتقها برد الندى فكأنه *** يبث حديثا كان أمس مكتما

ومن شجر رد الربيع لباسه *** علية كما نشرت وشيا منمما

أحل فأبدي للعيون بشاشة *** وكان قذىً للعين إذ كان محرما

وزق نسيم الريح حتى حسبته *** يجيء بأنفاس الأحبة نعما

فلا نجد فى هذة الابيات لفظا سوقيا مبتذلا ؛ ولا لفظا غريبا فهذه الأبيات وسمعها عامى ـ معاصر للبحترى طبعا لفهمها .

ومن شروط الالتزام بعمود الشعر : استقامة اللفظ وتعنى (خلوه من التنافر الموسيقى)

ويتسم شعر البحترى بانسجام الموسيقى وانتقاء الألفاظ المتجانسة صوتيا فإن حاسة السمع عنده قد مكنته من إدراك الفروق الصوتية فلا نسمع فى شعره صوتا كان نشاز وتتطلب استقامة اللفظ مشاكلته للمعنى وشد اقتضائه للقافية ويكون ذلك بان يوضع اللفظ موضعه لايزيد على المعنى ولا يتقص عنه وتقع الكلمة موقعها فى ما فيه البيت متوقعة منتظرة :

منى وصل ومنك هجر *** وفى ذل وفيك كبر

وما سواء إذا التقينا *** سهل على خله ووعر

قد كنت حرا وأنت عبد *** فعدت عبد وأنت حر

أنت نعيمى وأنت بؤسي *** وقد يسوء الذى يسر

نلاحظ هنا تجانس فى الألفاظ الذى نشأ بفعل الطباق (وهو التضاد بين كلمتين) كما هو واضح فى كلمات الأبيات : الوصل والهجر ـ الذل والكبر ـ السهل والوعر ـ العبد والحر ... الخ

ورغم هذا التزاحم فى الطباق إلا أن الكلمات جاءت فى مكانها غير مستكرهة ولا مجتلبة لأداء القافية ـ ومبدأ مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشد اقتضائه للقافية يرجع ـ فى تقديري ـ إلى الإنشاء

الشفاهى بما فيه من تواصل بين الشاعر (المنشد) وجمهوره (المستمع) ؛ هذا التفاعل الذى وصل إلى حد أن يتوقع الجمهور كلمة القافية وينطبق بها قبل أن يتلفظ بها الشاعر المنشد .

وعلى مستوى الدلالة تكلم النقاد والبلاغيون القدماء عن (شرف المعنى) والإصابة فى الوصف ويقصدون منهما : المبالغة فى الوصف لدرجة الوصول إلى نموذج تجريدى أعلى ؛ فالمرأة التى يتغزل بها لابد أن تكون جميلة الجميلات ؛ والممدوح أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؛ أى أن الشاعر يقدم لنا موصوفا تجريديا مثاليا لا موصوفا واقعيا سواء أكان إمرأة أو رجلا أو فرسا أو ناقة ....الخ .

ولقد جنى هذا المبدأ من مبادىء عمود الشعر جناية كبيرة على الشعر العربى القديم كله ؛ لأنه جعل الشعراء يهيمون فى عالم ذهنى ويقتصر جهودهم على المبالغة فى الوصول إلى الحد الأقصى فى المعنى ؛ دون وعى إبداعي بثراء الواقع وضرورة إدراك تفاصيله والتعبير عنها ؛ فيسقط الشاعر فى رؤية أحادية جوفاء على نحو ما يحدث فى الموسيقى حين يصنع لحنا فيجد نفسه أسير نغمة بعينها هى النغمة الحادة التي تعطى أعلى رنين موسيقى ؛ مغفلا الطبقات المتوسطة وطبقة القرار ؛ الأمر الذى يحول بينه وبين تقديم معادل صوتي ونغمى للواقع والشعور الإنساني بما فيهما من تباين وتنويع لابد أن ينعكسا فى الطبقات المختلفة للسلم الموسيقى.

وباسم هذا التقليد الفنى الذى رسخه النقد القديم طقساً من طقوس الإبداع الشعرى ، ثم إفراغ القصيدة العربية – فى معظم الأحيان – من المضامين الإنسانية بتفاوتها وغناها بالمشاعر والإيحاءات ، وتم تكريس رؤيـة تبصر قمم الجبال ، ولا ندرك ما تحت هذه القمم من سفوح ومنحدرات وطرق وصخور وكل التفاصيل الثرية بالفن والجمال ، إن صح هذا المجاز ، وقد إنسـاق البحترى وراء هذا التقليد الأدبي ، وبالغ فى وصف ممدوحين من الخلفاء.

أكرم الكرماء و أكثر الناس و أحسنهم ندىً و صنيعاً يقول البحتري في وصف ِالمعتز:

يا و حداً الخلفاء غيرَ مدافَع   كرماً و أحسنَهم نَدىً وصَنيعاً

ويقول في مدح الخليفة المتوكل

بسٌر مَنُ رَاَ لنا إمــام *** تغرف مَنُ كفه البحـــارٌ

خليفة يرتجى ويخشى *** كأنه جنه ونـــــــــار

كلتا يديه تفيض سحـــاً *** كأنها ضرة تغـــــــارٌ

فليس تأتي اليمين شيئاً *** إلا أتت مثله اليســـارٌ

فالملك فيه وفي بنيــه * ما اختلف الليل والنهــار**

ويبالغ البحتري أحياناً إلى أن يجعل ممدوحه فوق كل البشر مصوراً خلافته وحصوله عليها بأنها لم تأتي إلا بعون الله الذي مكنه منها وهو الذي يصلح وحده للحكم وهو المنعم و السيد المطاع والإمام وهو أمجد الناس والقادر على عدوه بالحرب ويقول البحتري :

الَلـهُ مَكَّنَ للخَلِيفــةِ جَعْفَــرِ * ملكاً يُحُسَنَــهُ الخليفة جَعَفرٌ**

نعمى من الله اصطفاه بفضلها * والله يرزق من يشــاء ويقــدر**

فامسلم أمير المؤمنين ولا تزال * تعطى الزيادة في البقاء و تشكرٌ**

عمت فواضلك البرية فالتـــقي * فـــيها المقل على الغنى والمكثر**

بالبر صمت و أنت أفضل صائم * وبسنه الله الرضيــه تفطـــرٌ**

فانعم بيوم الفطر عينـا إنــه * يـوم أغـر مـن الـزمـــان مٌشهرٌ**

ومن الأمور المهمة التي التزمها البحتري في عمود الشعر : (التئام أجزاء النظم والتحامها) وقد جرت التقاليد الأدبية على الانتقال من غرض إلى أخر بشكل تدريجي أسماه النقاد والبلاغيون : (حسن التخلص) و كانت القصيدة التقليدية تفتتح بالأطلال أو النسيب أو الخمر والغالبية العظمى تبدأ بمقدمة طللية على نحو ما في المعلقات السبع معلقات : امرئٌ القيس وطرفة وزهر وبن أبي سلمى وليد العامرى وعنترة بن شداد والحارث بن حلزة) ومنها واحدة تبدأ بمقدمة خمرية هي معلقة عمرو بن كلثوم ثم ينتقل الشاعر إلى الرحلة فيصف ناقته أو فرسه وهى تجوب الصحراء وما يصادفه من حيوان أو نبات وجبال ووديان ثم إلى الغرض الأصلي للعقيدة سواء أكان المدح أو الغزل أو الفجر ٠٠٠٠٠ الخ ٠

ومعظم مدائح البحتري التزمت هذا البناء والواقع أننا نشعر عند قراءتنا لقصائد البحتري بتماسك بنيتها وترابطها كما نحس بقدرة الشاعر الفذة على التنقل بين أغراضها بحرية تؤدى إلى المزيد من التواصل والامتداد الشعوري بين المتلقي وقصائد البحتري ٠

توفى البحترى سنة ٢٨٤هـ ٠

المتنبــــي

المتنبي شاعر متفرد ، اعتبره بعض نقادنا القدماء والمحدثين أهم شعراء القرن الرابع الهجري بل ربما أهم شعراء العربية جميعا .

قال في أغراض الشعر المختلفة : الوصف ، الغزل ، المدح ، الفخر ، الهجاء ، العتاب ، وصف الوقائع الحربية ، شكوى الزمان ... الخ، ويعتبر شعره سجلا حافلا للأحداث التاريخية الخطيرة التي مرت بها الشام والعراق آنذاك وجدير بالذكر أن المتنبي استطاع طيلة حياته أن يكون لنفسه خبرة عظيمة علي المستويين الحياتي والفني وقد استمد هذه الخبرة من الظروف العامة المتمثلة في التوترات الكـــثيرة المحيطة به والتطورات السريعة المتلاحقة للأحداث في الكوفة موطنه الأصــــلي

وقد كانت الكوفة وقتها تعيش فترة قلقة بسبب توارث القرامطة المتوالية المجاورة لها كما استمد خبرته كذلك من الروافد الثقافية المختلفة المحيطة به، فتأثر بالمحصول الفكري للفلسفة الإغريقية كما تأثر بالثقافة العربية التقليدية وكذلك بالمعاصرين له من المحافظين المجددين أمثال: البحتري وأبي تمام ، لهذا كله جاءت لغته انعكاسا لهـــذه المعارف وتنوعت ألفاظه بين البساطة والتعقيد وحفلت قصائده بالتجارب الثرية الـــتي لخصها في عبارات متينة التراكيب قوية جاءت كومضات خاطفة ، تعبر بإيجاز شـــديد عن محصول خبراته في حكم رائعة أصبحت بمرور الزمن أمثال يرددها الناس للتعبير عن أمالهم ، كما أصبحت أهم، مكامن تميزه ومن هذه الحكم الرائعة قوله :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو*ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقوله :

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله * وأخو الجهالة بالشقاوة ينعـــــــــــــم
لا يسـلم الشرف الرفيع من الأذي * حتى يراق علي جوانبه الـــــــــــــدم

وكما أجاد في الحكمة، أجاد في وصف المعارك الحربية، وبرع في رسم صور لـــــها أثارت إعجاب معاصريه كما أجاد في مدائحه التي جاءت رغم اتسامها بالمبــــــالغة الشديدة محكمة النسج ، واضحة المعاني ، فلم يترك معني منها دون أن يغوص فـــي البحث عنه .

ورغم الاتساع الزمني بيننا وبين شاعرنا إلا انه لا يزال يحتفظ بشهرته ومجده الشعري حتى يومنا هذا وما يزال تأثر الشعراء به مستمرا سواء من العرب أم الفرس.

نشأته وحياته

المتنبي هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين من أشهر شعراء زمانه ، ولد سنة ٣٠٣ هـ في حي كنده بالكوفة ، وهو عربي خالص ، ينتهي نسبه من جهة أبيه إلي قبيلة جعفي اليمنية ومن جهة أمه إلي همدان .

عاش طفولته في أسرة فقيرة الحال متواضعة ، وقد اخبرنا بعض الرواة أن أبيـــه كان سقا يبيع الماء لأهل الكوفة، إلا أنه لم يحل الفقر بينه وبين طموحه بل علي العكس كان نقطة انطلاق له دفعته أن يضع نصب عينيه منذ صباه ضرورة أن يهيئ لنفسه أسباب معرفة ما يضـعه في مقدمة صفوف الشعراء فراح ينهل من علماء الكوفة وأئمتها ودرس اللغة والنـــحو والشعر وعلوم الدين وتردد علي مجالس المناظرات بين العلماء وكذلك الوراقين ليفيد من كتبهم .

عرف المتنبي منذ طفولته بذكائه وقوة حافظته مما سهل عليه استيعاب ما يتعلمه، وبعد بلوغه تسع سنوات رحل مع أسرته إلي صحراء المساواة ، وعاش بين بنـــي الصابي حيث أكمل معرفته بالعربية الفصحى ثم عاد للكوفة سنة ٣١٥ هـ .

وقد استطاع المتنبي في هذه المرحلة المبكرة من حياته – بسبب – إطلاعه الواسع أن يكتب الشعر ومن بواكير أبياته :-

بأبي من وددتــه فافترقنا   وقضي الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولا فلما التقينا   كـــان تسليمـــه علي وداعـــا

وواضح ما عاناه المتنبي عندما اجتهد لكتابه هاذيين البيتين اللذين بدا فيهما حاجـــته إلي المزيد من الخبرة الفنية في مسألة الصياغة فالفكرة المحورية التي يريد نقلها إلينا هي ارتباطه بشخص ما وحبه له لكنه رغم هذا الحب يأبي الدهر إلا أن يفرق بينهما ثم قدر لهم اللقاء مرة أخري وبعد اللقاء افترقا ثانية .

ورغم بساطة الفكرة وسذاجتها ، جاء التعبير عنها ملتويا ومعقدا بطريـــــقة تجعلنا نكتشف بسرعة حاجة الشاعر إلي مزيد من الخبرة الفنية في الصياغة الشعرية وقد روي للشاعر أبيات كثيرة في هذه المرحلة المبكرة نظمها في الغزل والرثـــــاء والمدح والفخر .

لم يطل المقام بالمتنبي في الكوفة بعد عودته من البادية فرحل إلي بغداد وأقام بهـــا عامين من سنة ٣١٦ : ٣١٨ هـ رحل بعدها إلي الجزيرة والشام سنة ٣٢هـ وفي هذه الفترة أحس بضرورة ممارسة الشعر بوصفه حرفة يقتات منها فراح يمدح رؤســـاء القبائل وحاول الاتصال بسيف الدولة الحمداني لكنه لم يتمكن فرحل إلي جنوب الشام ، وهناك استثاره ضعف مكانة العرب وتحكم الأعاجم فيهم .

والمتنبي كان من أشد المتأثرين بعروبتهم ومن المعروفين بعلو همتهم وشجاعتهم بسبب نشأته في أعماق البادية العربية، لذلك غاظه أن تضمحل مكانة العرب (أهـــل السيف والقلم) وان يصبحوا مجرد قطعان من غنم لاحول لهم ولا قوة يقودهم الأعاجم كيفما شاؤا ، يقول :

وإنما الناس بالملوك وما * تفلح عرب ملوكها عجـــــم
لاادب عندهم ولا حســب * ولا عهود لهم ولا ذقـــــــم
بكل ارض وطئتها أمــــم * ترعي بعبد كأنها غــــــــنم

وأحس أن من واجبه بذل كل ما لديه من جهد، لدفع العرب للالتفاف حوله رغبة في جمع كلمتهم وعودة ملكهم القديم إليهم وطالبهم بالخروج علي أولئك الذين وصــلوا للملك وهم ليسوا أهلا له ودعي لنفسه بالزعامة والإمارة وابدي استعداده لمواجهة كل من يتعرض له أو يعصاه :

أيملك الملك والأسياف ظامئة * والطير جائعة لحم علي وصـــــم
من لو رأى ميعاد من ظمأ * ولو مثلت له في النوم لم يـــــنم
فيعاد كل رقيق الشفريين غدا * ومن عصي من ملوك العرب والعجم
فاءن أجابوا فما قصدي بها لهم * وان تولوا فما ارضي لها لســـهم

رأي بعض حاسدي المتنبي أنه بالغ في دعوة الناس لإتباعه إلي حد ادعائه للنـــبوة وقدرته علي فعل المعجزات وان الله انزل عليه قران .إلا أنه لا يعقل أن يكون لشاعر له هذه التجارب الحياتية أن يدعي النبوة في وقـــت رسخت فيه قواعد الإسلام في قلوب الناس .

لكن الذي لا شك فيه انه دعي لنفسه بوصفه قائدا ثائرا ساخطا علي ما آلت إلـــيه أوضاع المسلمين وحاول إقناع الناس بالخروج علي الحاكم وقد حذره البعض مـــن الاستمرار في معاداة السلطة لكنه لم يستجب حتى بلغ أمره والي الأخشيديين علـــي حمص الأمير (لؤلؤ الغوري) فأمر بالقبض عليه والقي به في السجن سنة ٣٢١ هـ ثم أطلق سراحه عام ٣٢٤هـ .

أحس المتنبي أن الدنيا ضاقت به وان ملاذه الوحيد هو الشعر ، فعاد للمدح بحثا عن الرزق ، واضطر إلي مدح أشخاص ليس لهم قيمة وغير معروفين في (منبـــــح، وطرطوس ، وإنطاكية)، ثم ارتقي درجة حينما دخل في خدمة بدر الخراســــاني نائب ابن الريق أمير الأمراء في بغداد في هذا الوقت ، لكنه لم يستقر طويلا وسرعان ما انسحب إلي صحراء السماوة عن طريق وادي الأردن ثم عاد الي انطاكيه ليـــمدح الإخشيديين ثم إلي الرملة ليعمل في خدمة الأمير حسن وأخيرا ابتسم له الحظ وضحكت له الدنيا حين استقر به المقام في مملكة الحمدانيين ومدح أميرها سيف الدولة، وكان ذلك ٣٣٦ هـ.
وقد أعجب المتنبي بهذا الأمير إعجابا شديدا ، لما توافر فيه من خصال كثـــيرة وعظيمة فكان شهما مخلصا وفيا لرفاقه ، شجاعاً ، أديباً ، ومحباً للعلم ، ذخر بلاطـــه بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء، واستطاع رغم صغر سنه الذي لم يتجـــاوز الخامسة والثلاثين أن يخوض حروب كثيرة ضد عرب الصحراء والبيظنتيين ، وقـــد توافقت طبائع هذا الأمير مع روح المتنبي الذي ظل في صحبته ثماني سنوات عايشـــه فيها صديقا لا يفارقه تقريبا معه في كل مكان يسجل خطاه ويصور معاركه ويكتب فـيه أجمل ما كتب شاعر عربي من مدائح ، وشجعه علي كل هذا اهتمام سيف الدولى به .

ومن المعروف ان هذا الأمير قد أحسن استقبال المتنبي كما أحسن تشجيعه وتقبل شعره قبولا حسنا فأغدق عليه بكثير النعم ، وأكرم وفاءه واستحسن جلسته ومن أجمل ما كتب المتنبي في مدح سيف الدولة قصيدته التي مطلعها :

أيدري الربع أي دم أراقا * وأي قلوب هذا الركب شاقا ؟
لنا ولأهله ابداً قلوب * تلاقي في جسوم ما تلاقي

وفيها يقول عن سيف الدولة:

إمام للائمة من قريش * الي من يتقون له شقاقا
يكون لهم إذا غضبوا حساما * وللهيجاء حين تقوم ساقا
فلا تستنكرن له ابتساما * إذا فهق المكر دما وساقا
فقد ضمنت له المهتج العوالي * وحمل همه الخيل العتاقا

يريد الشاعر أن يصل بالممدوح الي اعلي مراتب التكريم ، فهو إمام الأئمة ذو نسب أصيل شجاع حين يخوض الحروب لا يهاب أعدائه واثق من نفسه ومن نصره عليهم

ورغم المدائح الكثيرة التي قالها المتنبي في سيف الدولة إلا أنه كان عزيز النفس شديد الكبرياء والدليل علي ذلك ما اشترطه علي سيف الدولة ألا ينشد الشعر قائما إلا أن يقبل الأرض بين بيديه . وظل المتنبي في موضع التقدير والإكبار حتى وشي به حساده عند سيف الدولة وعلي رأسهم : الشاعر أبو فراس الحمداني وابن خالويه النحوي يؤدب سيف الدولة وصاحب الحظوة عنده وكان من أثار تلك الوشاية أن فكر سيف الدولة في إيلامه بالاستماع إلي غيره من الشعراء وحين ذاك لم يطق المتنبي صبرا وألقي قصيدة عصماء يعاتب فيها سيف الدولة مر العتاب ويهدده فيها بالرحيل إلى مصر أن لم ينصفه ولكن الأمير لم يعباء بتهديده وقد جاء في القصيدة قوله في عتاب سيف الدولة :

يا من يعز علينا أن نفارقهم * وجد أننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمة * لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا * فما لجرح إذا أرضاكم الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة * إن المعارف في أهل النهي ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم * ويكره الله ما تأتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصان عن شرفي * أنا الثريا وذان الشيب والهرم

إلي أن قال :

لئن تركنا ضميرا عن ميامننا * ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقدروا * ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به * وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

وقد عز على المتبنى وحز فى نفسه ألا يحفل الأمير بهذا العتب و ما اكتنفه منه لتهديد فرحل إلى مصر قاصدا كافورا عله يجد فى رحابه شيئا لم يجده فى رحاب الأمير الحمداني ومدحه بقصائد كثيرة اشهرها قصيدته التي مطلعها :-

كفي بك داء أن تري الموت شافيا * وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن تري * صديقا فأعليا أو عدوا مراجيا
إذا كنت ترضي ان تعيش بذله * فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولاتستطيلن الرماح لغارة * ولاتستجيدن العتاق المذاكيا

ولما لم ينل شيئا مما كان يؤمله في كافور هجاه هجاء مقذعا وخرج الي فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه ووزيره ابن العميد ونال عطاياهما ثم عاد إلي بغداد وفي طريق خروجه إلي الكوفة خرج عليه أعراب بني ضبه وفيهم فاتك بن جهل وكـــــان المتنبي قد هجاه فأوجعه هجاءه فانقضوا عليه من أجل ذلك فقتلوه هو وولده وغلامه سنة ٣٥٤ هـ .

بشــــــار بن برد

عاش بشار بن برد مرحلة انتقالية خطيرة فى حياة الأمة الإسلامية عامة ، والشعراء خاصـــــــة بسبب التغير الحاد في الأنماط الاجتماعية التى نتجت عن الانقلاب السياسى ، وانتقال السلطة مــن الأمويين إلى العباسيين ، وما استتبع ذلك من تغير فى البناء الاجتماعى فاحتل الفرس أرفع المناصب ليصبحوا سادة العرب فى العصر العباسي بعد أن كان العرب سادتهم فى العصر الاموى ، مما أدى إلى تداخل وامتزاج بين قيم عربية أصيلة وقيم فارسية جديـــــــدة، ليخلق الصراع بين هذه القيم انقسم الناس فى مفاهيمهم بين متمسك بالتقاليد العربية القديمة والدعوة إلى ضرورة الحفــــــــاظ عليها ، وبين متمرد على هذه التقاليد متجاوز لها إضافة لما فرضته ظروف تكوينه : فقد ولد لأم رومية وأب فارسى ، نشأ بين فصحاء العرب مــن بنى عقيل ٠ وقد تركت كل هذه الظروف أصداءها على بشار ٠ فرأيناه على الأطراف فى كــــــل شيء : ملتزما بعمود الشعر تارة ، وخارجا عليه تارة أخرى ، عربيا مدافعا عن عروبيته ، وناقما على كل العرب معبرا لهم لفقرهم مفتخرا بفارسيته ، متمسكا بالتقاليد أحيانا ، ومتجاوزا لهــــــــا أحيانا أخرى .

كل هذه التناقضات خلقت شاعرا متفردا حظى باهتمام تقدير واحترام معاصريه من أئمة اللغـــــــة وأعلام الشعراء الأمر الذى سوف تكشف عنه الصفحات التالية :

- مولد بشار ونشأته : -

مع اقتراب نهاية القرن الأول الهجري وبالتحديد فى سنه ٩٥ هجرية ، ولد شاعرنا الكبــــــــــير(بشار بن برد بن يرجوخ) الذي عرف بفصاحته وحسه العميق باللغة رغم كونه من الموالـــى الفرس .

كان جده يرجوخ من سبى المهلب بن أبى صفرة الذي كان واليا للأمويين على خراسان مـــــــن ٧٩ ــ ٨١ هجرية وولد له برد فى أثناء سبيبه ، ومن هنا كان برد من رقيق المهلب ثم وهبــه المهلب لزوجته خيرة القشيرية التى وهبته بدورها لامرأة من بنى عقيل أحد فروع قيس علان

وعندها ولد له بشار ، وأشفقت السيدة العقيلية على بشار الطفل الأعمى فأعتقته وأعتقت أبـاه فأصبحا من موالى بنى عقيل .

نشأ بشار فى أسرة فقيرة رقيقة الحال ، فقد كان أبوه (برد) أحيانا يضرب اللبن بالبصـرة.
وكانت أمه (غزالة) مثل أبيه من رقيق خيرة القشيرية وكان لبشار أخوان : بشر وبشـير ،وكان يعملان يبيعان اللحم ، ومن الصدف الغريبة إصابتهما بعاهتين مختلفتـين فأحد هما كان أعرج والأخر أبتر اليد ٠ ولابد أن تترك هذه الظروف الصعبة – التى عاشهـا شاعرنا – تأثيراتها على حياته ، لكنه احتمى بإبداعه .
وجعل كل همه تعلم لغة العرب وعلومها ، واستطاع أن يجعل من عاهة العمى التى – ابتلى بها- نقطة انطلاق ، ليخلق فى فضائه الابداعى الخالص ، متنقلا بين الأغراض الشعرية المختلفـة ومتفننا فى ابتكار صور شعرية بصرية عجز المبصرون عن الإتيان بمثلها ، الأمر الذي أصـاب معاصريه بالدهشة وقد سئل يوما عن سر هذه القدرة التصويرية العجيبة رغم أنه (لم ير الدنيا قط ولا شيئا فيها) فأجاب بقولة : (إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته) ثم أنشد قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى	**فجئت عجيب الظن للعلم قائـلا**
وغاض ضياء العين للعلم رافدا	**بقلب إذا ما ضيع الناس حصـلا**
وشعر كنور الأرض لاءمت بينه	**بقول إذا ما أحزن الشعر أسهـلا**

ولاشك أن بشارا يحاول من خلال هذه الأبيات أن يجعل من العمى ميزة أنه مكنه من الانصراف عن الأشكال والمظاهر الخارجية إلى التأمل الباطني العميق في الأشياء وعبر عن مفهوم التأمل بكلمة (الظن) الذي يقود إلى (العلم) .
إذا كان الناس يرون ظواهر الأشياء بنور أبصارهم فان بشارا – الكفيف – قد تسرب نور بصره إلى قلبه ليمده بالعلم أي أنه قد أستبدل بالبصيرة فكان قلبه حفظ وأوعى كما يربط بشار فـى الأبيات بين الذكاء والعمى بل يجعل الذكاء شيئا من العمى وخص العميان به دون غيرهـم .
وهو بذلك يتخذ من كف البصر منطلقا إلى تميزه، ومن أصداء هذا التحدي نقله لدلالة كلمة العمى من معناها (كف البصر) إلى معنى أخر مستعار هو (الضلال والخطأ) ، يقول بشار :

شفاء العمى طول السؤال وإنما   تمام العمى طول السكوت على الجهل

شفاء العمى من واقع فهمه ووعيه يسعى المرء للمعرفة وتمام العمى أن يبقى جاهلا لم يحـــاول بشار أن ينقل خصوصية الرؤية من العين إلى القلب بل ويجعل القلب يرى مالا يراه البصر، يقول:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقهـــــــا   فلبى فأضحى به من حبها أثـــر

أنى – ولم ترها – تصبو ؟ فقلت نعم   إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

فالحب تعلق قلبى وألفة روحانية والقلب هو المصدر الوحيد لهذا الحب لأن العيون لا تبصر فـــــى موضع الهوى والأذنان لا تسمعان إلا من القلب وهذه الأبيات يوجهها إلى من يحاولون الوقـــوف حائلا بينه وبين فتاته التى يحبها (عبدة) وإذ يبدو أن بعض الناس قد وصفوا (عبده) لـــــــه " بقبح " الوجه وأنها ليس لها من المحاسن ما يرغبه فيها وأنكر وعليه حبه لها دون أن يرها.

لذلك يجيبهم بشار بقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشـــــــر   قلوبهم فيها مخالفه فلــــــــبى

فلقت دعوا قلبى وما اختار ارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وما تبصر العينان فى موضع الهوى   ولا تسمع الأذنان إلا من القلـب

ما الحسن إلا كل حسن دعا الصبــا   وألف بين العشق والعاشق العبن

وشىء عجيب أن تكثر فى ديوان بشار مثل هذه الأبيات التى يجعلها الشاعر أداته لعبرة عن قداتــة الخلاقة وتميزه عن الأخريين فى كل شيء .

وإذا كان بشار قد جعل من عاهته منطلقا أساسيا من المنطلقات التى كونت شخصيته الحياتيـــــة والفنية فإنه لم يكن المنطلق الوحيد بل كانت هناك عوامل كثيرة ويمكن – إغفالها ساهمت بشكـل مباشر وغير مباشر في جعل بشار بن برد واحدا من أهم الشعراء المجددين فى العصر العباســى الأول ومن هذه العوامل ، خبرته الفنية الواسعة التى ميزت شعره بالتفرد وجعلته واعيا بطرائـــق العرب وفى نظم قصائدهم وعارفا أسرار معانيهم وغريب ألفاظهم لذلك كله عرف الفصاحـــــة وصنفه نقادنا القدماء من الشعراء الفحول يقول الاصمعى : " بشار خاتمه الشعراء ، والله لـــولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم "

كذلك كان لنشأته فى بنى عقيل أثره الكبير على هذه الفصاحة وهو ما لم تنكره حين سئل عنها : (ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشـــــك فيه ، وليس فى شعرك ما يشك فيه ، فأجاب : ومن أين يأتيني الخطأ ، ولدت ها هنا ، ونشـــأت

في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما منهم أحد يعرف كلمة من الخطأ وان دخلـــــت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟ !
كثيرا ما كان يفخر بشار فى بداية حياته بولائه لبنى عقيل ومن ذلك قوله :

إنني من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلحي الأعناق

فلا بد أن تترك مثل هذه النشأة تأثيراتها على ملكة الشعر عند بشار وأتضح ذلك فى نبوغـــــه الشعري مبكرا فقد قال الشعر ولم يتجاوز سنه العاشرة ، ومنذ هذه السن المبكرة أخذ الصـــــبي يبحث لنفسه عن مكان بين الناس – بوصفه شاعرا – فأسعفته خبرته الفنية التى تكونت لديــــه من نشأته فى بنى عقيل كزمظ إلى أن الهجاء هو أفضل السبل التى تعرفه بالناس وتعرفهم بـــــه وتلفتهم إليه فبدأ بهجاء من حوله فسخر منهم واستهزأ بهم موظفــــا ما حفظــه مـــن ألفـــاظ والتعبيرات لخدمة هذا الهجاء الذي يبدو من خلال ما وصلنا من أخبار أنه بالفعل كان هجاء لاذع ومؤثر إلى الحد الذى كان يدفع الناس دفعا للذهاب إلى برد (والد بشار) ليشكوا إليه هجاء ابنه لهم .
فكان أبوه يضربه ضربا مبرحا ، وكانت أمه لا تفتأ تقول لأبيه : أما رحم هذا الصبي الضريـــــر وأنت دائم الضرب له ، فيجيبها : أنى والله لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه لى ، فيستمـــع بشار إلى قول أبيه ويحس نغمة العطف فى إجابته فيطمع فيه ويقول له : يا أبت إن هذا الـــــذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر ، واني ان ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي ، فان شكوني إليـــك فقل لهم : أليس الله يقول :

(ليس على الأعمى حرج)، فلما عاود الناس شكواهم قال لهم برد ما قاله بشار ، فانصرفوا حانقين وهم يقولون : فقه بـــرد أغيظ لنا من شعر بشار ٠

بالطبع لم يتوقف بشار عن هجاء من حوله وعندما أحس بوجوده بينهم راح يبحث لنفسه عـــن شاعر كبير يهجوه وهو ما فعله عندما هجا جرير الشاعر الاموى الكبير لكنه لم يرد عليه وعـــن ذلك قال بشار :
(هجوت جريرا فأعرض عنى واستصغرني ، ولو أجابني لكنت أشعر الناس) – الحقيقة أن بشار ظل طيلة حياته يهجوا الناس وينتقص من قدرهم وربما كان أهم دوافعه إلى ذاك إجبار الذيـــــن يمدحهم على زيادة عطاياهم أو حماية نفسه ممن يعيرونه بعماه أو بانتمائه للفرس لذلك كـــثرت قصائده فى الهجاء وعندما سئل عن سر هذه الكثرة أجاب بقوله : إنى وجدت الهجاء المؤلــــــم اخذ بطبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد أن يكرم فى دهر للئام على المديح فليستعد للفقر

والا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى ، وقد جر هذا المنهج على بشار وبالا عظيما لأنه سهل على حساده المتربصين به الطريق لتلفيق التهم إليه مثل تهمه الزندقة التى كانت سببا استغله أحـــــد خصوم بشار وهو (يعقوب بن داود) للوشاية به عند الخليفة المهدي ، مما أدى لقتله فى سنــــة ١٦٨ هجرية .

الخصائص الفنية لشعر بشـــــار

جاءت قصائد بشار سجلا للتراث العربي القديم خاصة فى العصر الأموى متأثرا فى ذلك بالثقافـــة العربية السائدة فى المجتمع كله، فبدأ تقليديا سائرا على نهج القدماء لا يحـــــيد عنه فى بناء القصيدة وألفاظها وصورها التى جاءت مستوحاه من البيئة البدوية التي عاش فيها فجـــــاءت الألفاظ جزلة – على حد تعبير النقاد القدامى – مائلة للخشونة التي هي سمة من سمات البيئـــة البدوية ، كما جاءت المعاني فى إطار حياة البدوي ، الصحراوية وتكون الصور منتزعة مـــــن هذه البيئة ، فالجواد كصخرة ، والمرأة الجميلة كالغزال وعيناها كعيني ظبي أو بقرة وحشيـــة ، ومن الصور التى شبه فيها المرأة بالغزال قولـــه :

عرضت إلى وجه الحبيب فراعني غزال عليه زعفران مضرج وعلى النقيض من ذلك يأتي شعر من يعيشون فى بيئة حضارية تبين ألفاظهم وتعذب وتبعد عن الغرابة والوحشية وتسهل معانيهم وترقى ، ابتعادهم عن البادية واتصالها بالعوامل الحضاريـــة التي صبغتها هذه الصبغة الجديدة .

ويستمد الشاعر صوره من الأنهار والحدائق بدلاً من الصحراء ورمالها ، وهو ما حدث مع بشار مع بداية العصر العباسى الأول وحدوث الاتصال المباشر بين (العـــــرب والفرس) وما لكل منهما من عادات وتقاليد أنتجت الصراعات بين القيم القديمة والقيم الجديدة وبطبيعة الحال يتأثر الشعراء بهذه الصراعات ويحاول بعضهم الانفلات من القديم بكل ما فيه إلى الجديد بكل ما يفرضـــــه، (بشار بن برد) من أول دعاة التجديد وحملت لواءه فى العصر العباسي الأول خاصــــا علـــى مستوى اللغة ، فعلى الرغم من معرفة بشار الواسعة باللغة الفصيحة إلا أنه حاول الانفلات منها والخروج إلى آفاق جديدة تستوعب ثقافة العامة وتعبر عنهم بلغة بسيطة سهلة جعلت قصائدة سريعة الجريان على ألسنة الناس وكأنه بذلك قد تأثر بالظروف الحضارية الجديدة. يريد لخطابه أن يكون واضحا مفهوما لمختلف طبقات المجتمع خاصة أولئك الذين لم يكونوا عربا خلطا وكانوا حديثى عهد باللغة والمجتمع من الموالى لذلك جاءت لغته الشعرية فى كثير مـــــن

قصائده الغزلية – خاصة سهلة بسيطة خالية من الألفاظ الوحشية بعيدة عن التراكيب المعقـــدة والصور المركبة ويتضح ذلك فى قوله :

قل لحباء إن تعيشى فموتى سوف ترضى لك الذي قد رضيت
قد قبلنا ما كان منك إليــنا وبرينا من عيبه ان بريـــــــت
حدثينى – فقد وقعت بشك أتعمدت سخطنا أم غبيـــــــت

وقد يبالغ بشار فى تبسيط لغته ليبدو أكثر التصاقا بالعامة وأكثر قدرة على التعبير عن ثقافتهـــم وأفكارهم ومن ذلك قوله :

ربابة رب البيــــــت نصب الخل فى الزيـــــــت
لها عشر دجاجـــــات وديك حســـــن الصـــوت

وقد أراد بشار بهذه اللغة البسيطة أن يفتح أبواب الغزل على مصراعيها لنشر قصائده على ألسنة العامة ويسهل ترديدها ولاشك أن الغزل من أكثر الأغراض الشعريـــة التى استطاع بشار أن يجدد فيها حيث أفرض قصائد كاملة لهذا الغرض دون الوقوف بالأطـلال ، ودون تعدد فى موضوعات القصيدة فجاءت وحدات مكتملة يربط بينها جو نفسي واحد نتج عــن وحدة الموضوع كما استطاع أن يبتكر أوصاف ومعاني جديدة لم يسبقه إليها أحد من قبل وقـــد أجمع أهل الشعر ونقاده أن بشار قائل أبيات تميزت بروعتها حلاوة معانيها ومن هذه الأبيـــات قولـــه :

لم يطل ليلى ولكن لم أنــم ونفى عنى الكرى طيف ألــم
وإذا قلت لها جودي لنـــا خرجت بالصمت عن لا ونعــم
نفسي ياعبدة عنى واعلمي اننى ياعبدة من لحـــــم ودم
إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهـــــــدم
ختم الحب سلها فى عنقـى موضع الخاتم من أهل الذمــم

وقد أبدع فى هذه الأبيات فى مشاكاة المحب باعتباره سببا لأرقه ومجافاة عينيه للنوم وبخلها حتى بالرد عليه (فخرجت بالصمت عن لا ونعم) تبدو روعة التوصيف فى هذه الأبيات من خـــلال تعبير بشار عن حالته وتوسله بمحبوبته أن تخفف عنه ما يعانيه لأنه بشر من لحم ودم يشعـــر ويتألم حتى أنه من شدة معاناته نحل جسده وضعف وذبل ومن أبياته الغزلية الرائعة قولـــــه :

وذات دل كأن البدر صورتهـــا باتت تغنى عميد القلب سكرانا
إن العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلانـــــا

فقلت : أحسنت ياسؤلى ويا أملـــــــــى　　　فأسمعيني ، جزاك الله إحسانا
يا حبذا جبل الريان من جبــــــــــــــل　　　وحبذا ساكن الريان من كانـــا
قالت : فهلا – فدتك النفس – أحسن من　　　هذا لمن كان صب القلب حيرانا
يا قوم أذني لبعض الحى عاشقـــــــــة　　　والأذن تعشق قبل العين أحيانا

هكذا استطاع بشار أن يقدم فى قصائده الغزلية الرائعة لغة بسيطة ومعبرة لإثراء النفس الإنسانية وأحوالها الشعورية المتعددة واستطاع كذلك أن يمهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء ليســـير على هديه ويقتضى خطاه كما فعل شاعرنا الكبير (أبو نواس) .